الباب الثـانى

وصايا الخلفاء الراشدين والصحابة

obeikandl.com

obeikandl.com

وصية أبى بكر الصديق الى خالد بن الوليد

كان أبوبكر رضى الله عنه قد بعث المثنى بن حارثة الشيبانى على جيش إلى العراق ، فقدم العراق فقاتل وأغار على أهل فارس ونواحى السواد فقاتل حولا أو نحوه – ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكر يستمده فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إلى خالد بن الوليد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد .. فالحمد لله الذى أنجزَ وَعْدَه ، ونَصَرَ دِينَهُ ، وأعَزَّ وَلِيَّهُ ، وأذَلَّ عَدُوَّه ، وغَلَبَ الأَحْزَاب فرداً . قال الله تعالى (وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُم وعَمِلُوا الصَّالِحَات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فى الأَرْض كما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهم الَّذى ارتَضَى لَهُم ولَيبدلَنَّهُم من بَعْد خَوفِهم أَمناً ، يَعبدُونَنى لايُشْرِكُونَ بى شَيئاً ، ومَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلكَ فأُولٰئكَ هُمُ الفَاسقُون) (١) وَعْداً لاخُلف له ، ومقالا لا رَيْبَ فيه ، وفرض على المؤمنين الجهَاد فقالَ عزَّ من قائل :

---

(١) النور : ٥٥ .

(كُتِبَ عَلَيْكُم ٱلْقِتَال وهوَ كرْهٌ لَكُم ، وعَسَى أن تَكْرَهُوا شَيئاً وهوَ خَيرٌ لَكُم ، وعَسَى أنْ تُحبُّوا شَيئاً وهوَ شَرٌّ لَكُم ، والله يَعْلَمُ وأَنْتُم لا تَعْلَمُون) (١) . فاستَتِمُّوا مَوعد الله إيَّاكُم ، وأَطيعوه فيما فَرَضَ عليكم ، وإن عَظُمَتْ فيه المئونة واشتدَّت فيه الرَّزية ، وبَعُدَت فيه الشقَّة ، وفُجعتُم فى ذلك بالأَموال والأَنفس ، فإن ذٰلك يَسيرٌ فى عَظِيم ثواب الله ولَقَد ذَكَرَ لَنَا الصَّادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أَن الله يبعث الشهداءَ يوم القيامة شاهرين سُيُوفهم لا يَتَمَنَّون على الله شيئاً إلا آتاهُ ، حتىٰ أَعْطوا أَمانيهم ، وما لم يخطر على قلوبهم ، فما شىءٌ يتمنَّاه الشَّهيد بعد دُخولِه الجنَّة إلا أَن يردَّهم الله إلى الدُّنْيَا فَيُقْرَضون (٢) بالمقارِيض فى الله لعظيم ثواب الله .

انفروا – رحمكم الله فى سبيل الله – خفافاً وثقالا ، وجاهدُوا بأَموالِكُم وأَنفسِكُم فى سبيل الله ، ذٰلكُم خَير لَكُم إن كُنتُم تَعْلَمُون ، فقد أَمَرْتُ خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق لايبرحه حتىٰ يأْتِيه أَمرى ، فَسيروا مَعَه ؛ وَلا تَثَّاقلُوا عَنْه فإنَّه سَبيل يُعَظِّم الله فيه الاجرَ لمَنْ حَسنت فيه نيَّته ، وعَظُمَت فى ٱلْخَير رَغْبَته ، فإذا قَدمتم العرَاق فَكُونوا بها حتىٰ يأْتيكُم أَمْرِى ، كَفَانا الله وإيَّاكُم مهم أَمور الدُّنْيَا والآخرة والسَّلامُ عَلَيكُمْ ورحْمَةُ الله .

***

---

(١) البقرة : ٢١٦ (٢) يستشهدون فيجزون الجزاء الحسن .

وصية أبى بكر الصديق الى عمر بن الخطاب

لما مرض أبو بكر رضى الله عنه مرضه الذى توفى فيه عهد إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال :

« إنِّى مُسْتَخْلِفُكَ مِنْ بَعْدِى ، ومُوصِيكَ بِتَقْوَى الله ، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنَّهار ، وعملا بالنَّهار لا يقبله بالليل ، وإنَّه لاتُقْبَل نافلة حتى تؤتى الفريضة فإنَّه إنما ثَقُلَت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لايوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنَّما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً .

إن الله عز وجل ذكر أهل الجنَّة فَذَكَرَهُمْ بأَحْسن أَعْمالِهمْ وتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهم فَإِذَا ذَكَرْتُهم قُلتُ انى أَخافُ أن لا أَكُونَ مَعْ هؤلاء ؛ وذكر أهل النار فذكرهم بِاسوإِ أعمالِهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلتُ إنى لأَرجو أن لا أَكونَ مِنْ هؤلاء . وذكر آية الرحمن مع آية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ، ولايتمنَّى على الله غير الحق ولايُلقى بيده إلى التَّهلكَة .

فإذا حَفِظْتَ وصِيَّتِى فلا يكُن غائبٌ أَحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإذا ضيَّعت وصيَّتِى فلا يكُن غائب أَبغَض إليكَ مِنَ الموت ، ولستَ بمُعْجز الله .

ياعمر ، أبغضَكَ مُبغِض وأَحَبَّكَ مُحِب ، وقِدْماً يُبْغَضُ الخَير ويُحَبُّ الشَّر .

فقال عمر : « لا حاجة لى فيها (يعنى الخلافة) » فقال له :

ولكن لها بك حاجة يا ابن الخطابِ ، إنى إنما أستخلفك نظراً لما خَلَّفتُ ورائِى . قد رأَيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وَصَحِبْتَه ، ورأَيتَ أَثَرَته أَنفسنا على نفسه حتىٰ إن كنا لنهدى لأَهله فضل ما يأتينا منه ، ورأَيتَنِى وصحبْتَنِى ، وإنما اتبعتُ أَثر من كان قبلى ، والله ما نمتُ فحَلمتُ ، ولا تَوَهَّمْتُ فسَهَوتُ ، وإنِّى لَعَلى السَّبِيل ما زغْتُ . إن أول ما أُحَذِّرُك ياعُمَرُ نفسك ، إن لكل نفس شهوة فإذا أَعطيتها تمادت فى غيرها ؛ واحذر هؤلاءِ النَّفَرَ مِن أَصحاب رسول الله ، فإنَّهم قد طمحت أَبْصَارُهُمْ ، وانتفخت أَجوافهم ، وأَحَبَّ كل امرىءٍ مِنهم نفسه ، وإن لهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فإياك أَن تكونه ، فإنهم لن يزالوا خائفين لك فَرِقِينَ مِنك مازلت خائفا لله وفَرِقْتَهُ ، ولَكَ مُسْتَقِيمين ما استقامت طريقتك .

وهذه وصيتى وأَقرأَ السلام عليك

***

أبو بكر وجيش أسامة بن زيد

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد بن حارثة على رأس جيش وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم (١) وكان آخر بعث بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم وكان بينهم عمر بن الخطاب .

---

(١) البلقاء فى الضفة الشرقية لنهر الأردن (وعاصمتها عمان الآن) والداروم قلعة جنوب غزة .

وما كاد الجيش يجاوز الخندق حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف أسامة حتى استخلف أبو بكر ثم أرسل عمر بن الخطاب إلى أبى بكر يستأذنه الرجوع للوقوف إلى جواره فى موقفه الخطير الجديد لما توقعه من انتقاض بعض القبائل وارتدادهم ، ولما علم من رغبة الأنصار أن يولى عليهم رجل أقدم سناً .

فلما أخبر عمر أبا بكر بما قال أسامة ، قال أبو بكر :

« والله لو علِمْت أَن السِّباع تَجُرُّ برجلى إن لَم أُرُدَّه مارَدَدْته ولا حَلَلْت لِواءً عَقَده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر :

« إن الأَنصارَ يطْلُبُونَ إلَيكَ أَن تُولى أمرهم رجُلا أَقدَم سِنًّا منْ أُسامة » .

فوثب أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر وقال :

« ثَكِلَتْكَ أُمّك وعدِمَتْكَ يا ابنَ الخَطَّاب . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتـأمرنى أَن أَنزعه ؟ »

فعاد عمر إلى الناس فقالوا له : ما صنعت ؟

فَقَال : « امضوا ثكلَتكُم أُمهَاتُكُم، مالَقِيتُ فى سَبِيلِكُم من خليفَة رَسُولِ الله » .

ثم نادى منادى أبى بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتم بعث أسامة :

« أَلا لايبقيَنَّ بالمدِينَة أحد من جُنْد أُسامة إلا خرج إلى عَسْكَره بالجرف » (١) .

---

(١) الجرف مكان على بعد ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

وقام أبو بكر فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« يا أَيُّهَا النَّاس ، إنى وُلِّيتُ هذا الأمر وأنا لَهُ كَارِه والله لوددتُ او أَنَّ بعضَكُم كَفَانِيه ؛ وإنَّمَا أنا مِثْلَكُم ، وإنى لا أَدْرى لَعَلَّكُم سَتُكَلِّمُونى ما كانَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم يطيق ؛ إنَّ الله اصطفى مُحمَّداً على العالمين ، وعَصَمه مِنَ الآفات وإنَّمَا أَنَا مُتَّبِع ، ولستُ بِمُبْتَدِع ولَسْتُ بِخَير مِنْ أَحَدِكُم ، فراعونى ، فإن رأَيْتمُونى اسْتَقَمْت فتَابِعُونى وإن رَأَيْتُمُونى زغت فَقَوِّمُونى ؛ وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ وليس أَحد من هذه الأُمَّة يطلبُه بِمَظلمة ضربة سَوط فما دُونَهَا ، أَلا وإنَّ لِى شَيطَاناً يَعْتَرِينِى ، فَإِذا أَتانى فاجْتَنِبُونى لا أُوثر فى أَشعازِكُم وأَبْشَارِكُم » .

ثم أشخص الجيش وتبعه وهو ماش وأسامة راكب وعبدالرحمن بن عوف يقود دابه أبى بكر ، فقال له أسامة : ياخليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن ، قال :

« والله لاتَنْزل ، ووالله لا أَرْكَب ، وما عَلَىَّ أَن أُغَبِّر قدمىَّ فى سبيل الله ساعة ، فإن للغَازِى فى كلِّ خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتَب له وسبعمائة درجة تُرْفَع له ، وتُرفع عنه سبعمائة خطيئة » .

ولما انتهى قال لأسامة : إن رأيت أن تعينى بعمر فافعل ، فأذن له . ثم قال أبو بكر :

« يا أَيُّهَا النَّاس ؛ قِفُوا أُوصيكُم بِعَشْرٍ فاحفَظُوها عنى :

لاتَخُونوا ، ولا تغُلُّوا ، ولاتَغْدُرُوا ، ولا تُمثِّلُوا ، ولاتَقْتُلُوا طِفْلاً صَغِيراً ولاشَيخاً كَبِيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولاتقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة أو بقرة ولا بعيراً إلا لِماكَله وسوف تَمرون بأقوام قد فرَّغوا أَنفسَهم فى الصَّوامع فدعوهم وما فرَّغوا

أَنفُسَهُم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله » .

ثم قال لأسامة :

« اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل (١) ، ولا تُقَصِّرَنَّ فى شيء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

***

كتاب عمر الى أبى موسى الأشعرى

وكتب عمر إلى أبي موسى وهو بالبصرة :

بلغنى أنك تأذن للناس الجَمَّاءَ الغفير ، فإذا جاءك كتابى هذا فَأْذَن لأهل الشرف . وأهل القرآن والتقوى والدين . فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة ، ولاتؤخر عملَ اليوم لِغَدٍ ، فَتَتَدَاكَّ (٢) عَلَيكَ الأعمال فتضيع ، وإياك واتباع الهوى ، فإن للناس أهواء مُتَّبعة . ودنيا مُؤثَرَة ، وضغائن محمولة ، وحاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة ، فإنَّه مَنْ حَاسَبَ نَفْسه فى الرَّخاءِ قَبْل حِساب الشِدَّة كان مرجعه إلى الرضا والغبطة ، ومَنْ أَلْهَتْه حياته وشَغَلَتْهُ أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة ، إنَّه لايقيم أمر الله فى الناس إلا حصيف العقدة ، بعيد التمرارة ، لايَحْنِقُ على جِرَّة (٣) ، ولا يطَّلع الناس منه على عورة ، ولايخاف فى الحق لومة لائم .

---

(١) آبل : بلد بالأردن .

(٢) تزدحم .

(٣) ما يفيض به البعير فيأكله ثانية والمقصود : لايضمر الحقد والحنق .

إلْزَم أَرْبَع خِصال يَسْلَم لَكَ دِينك ، وتَحظ بأفضَل حظِّك : إذا حضر الخصمان فَعَلَيكَ بالبَيِّنَات العدول ، أو الأَيْمَان القَاطِعَة ، ثمَّ تأْذن لِلضَّعيف حتىٰ يَنْبَسِطَ لِسَانُهُ ويَجتَرِىءَ قلبه ، وتَعَاهَدْ الغَرِيب فإنَّه إذا طال حَبسُه ترك حَاجَته وانصَرف إلى أَهله . واحرص على الصلح ما لم يَبِنْ لَكَ القَضَاءُ .

***

كتـاب عمر الى أبى موسى الأشعرى

(فى القضاء)

بِسْم الله الرَّحمٰن الرَّحِيم : مِن عَبْد الله عُمَر بن الخَطاب أَمِير المؤْمِنين إلىٰ عَبْد الله بن قيس : سلام عليك .

أما بعد .. فإن القضاءَ فريضة مُحكَمَة وسُنَّة مُتَّبعَة ، فافْهَم إذا أُدْلِى (١) إليك ، وانْفُذ إذا تَبَيَّنَ لَك ، فإنَّه لاينفَع تَكَلُّم بحق لانفاذ له ، آس (٢) بين النَّاس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمَع شريف فى حَيفِك (٣) ولا يَيأَس ضَعِيفٌ مِن عَدْلِك . البيِّنَة على من ادَّعَىٰ واليَمِين على من أَنكَر . والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صُلحاً أَحَلَّ حَرَاماً أَو حرَّمَ حلالا ، ولايَمْنَعَنَّك قضاءٌ قضيته اليوم (٤) فراجعت فيه عقلك وهُدِيتَ فيه لِرُشْدك ، أن ترجع إلى الْحَقِّ ، فإن الحق قديم ، ومراجَعَة الحق خير من التمادى فى الباطل .

---

(١) أدلى بالحجة احتج بها .

(٢) سو بينهم واجعل بعضهم أسوة لبعض .

(٣) ميلك معه لشرفه .

(٤) فى قول آخر : بالأمس ..

الفهمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ فى صدرك مِمَّا لَيسَ فى كتاب الله ولا سُنَّة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم اعرف الأَشباه والأَمثال فَقِسِ الأُمور عِنْدَ ذٰلِكَ بِنَظَائِرِها ، واعْمَد إلى أَقربها إلى الله وأَشبهها بالحق واجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أو بَيِّنة أَمداً ينتهى إليه ، فإن أَحضَرَ بَيِّنَته أَخَذْت له بِحَقِّه ، وإلا استَحْلَلْت عليه القضية ، فإن ذالك أَنْفَى لِلشَّك ، وأَجلى للعمى ، وأَبلغ فى العذر .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد ، أَو مُجَرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظَنِيناً (١) فى ولاءٍ أَو نَسَب ، فإنَّ الله قَدْ تَوَلَّى مِنْكُم السَّرَائر ، ودَرَأَ (٢) بالبَيِّنَات والأَيمان ، وإيَّاكَ والْغَلَق (٣) والضجر والتَّأَذِّى بالخُصُوم ، والتَّنَكُّر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يُعْظِمُ الله به الأَجْر ، ويُحْسِن به الذُّخْر ، فمن صَحَّت نِيَّته ، وأَقبَلَ على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومَنْ تَخَلَّق (٤) للناس بما يعلم الله أَنه ليس من نفسه ، شانَهُ الله ، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَاب عند الله عزَّ وجلَّ ، وخَزَائن رحمته ، والسلام .

***

كتـــاب عمر الى أبى موسى الأشعرى

(فى سياسة الدولة)

أَما بعد .. فإن للنَّاس نُفْرَةً عن سُلطَانهم ، فأَعوذ بالله أَن تُدْرِكنى وإيَّاكَ عَمْيَاء مجهولة وضَغَائن محمولة ، وأَهواءً مُتَّبَعَة ، ودنيا مُؤْثَرَة (٥)

---

(١) متهما .
(٢) دفع — الحديث (ادرأوا الحدود بالشبهات) .
(٣) ضيق الصدر .
(٤) تكلف .
(٥) مفضلة .

فأَقِم الحُدُود ولو ساعة من النَّهَار ؛ وإذا عرضَ لَكَ أَمْرَان : أحدهما لله ، والآخر للدنيا ، فآثِرْ نَصِيبكَ مِنَ الآخِرَة على نَصِيبك من الدنيا . فإنَّ الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وكُنْ مِنْ خشْيَة الله على وَجَل ، وأَخِف الفُسَّاق واجعلْهُم يداً يداً ، ورِجلا رجلا (١) وإذا كانت بين القَبَائِل ثَائِرَةٌ (٢) وتَدَاعَوا يالَفُلان ، فإنَّمَا تلك نَجْوَىٰ (٣) الشَّيطَان ، فاضرِبهم بالسَّيف حتى يفيئوا (٤) إلى أَمْرِ الله . وتكون دعوتهم إلى الله والإسلام ، واسْتَدِم النِّعْمَة بالشُّكر ، والطَّاعَة بالتَّأَلُّف ، والمقدِرَة والنُّصْرَة بالتَّواضع والمحبَّة للناس .

وقد بَلَغَ أَميرَ المؤمنينَ أَنَّ ضبَّة تَدْعُو يالضَّبَّة ، وإنى والله ما أعلم أن ضبة ساق الله بها خيراً قَطُّ ، ولا منع بها من سُوءٍ قط ، فإذا جاءك كِتَابى هذا فانْتَهِكْهُم (٥) عُقُوبَة حتىٰ يَتَفَرَّقُوا إن لَمْ يَفْقَهُوا ، وٱلْصَقْ بِغَيْلان ابن خَرَشَة من بَينهم (٦) ، وَعُدْ مَرْضَىٰ المُسْلِمين ، واشْهَدْ جَنَائِزَهُم ، وافتح بابك لهم ، وباشِرْ أَمرَهم بِنَفسك ، فإنَّمَا أَنْتَ امرؤٌ مِنْهُم غَيرَ أَنَّ الله جَعَلَكَ أَثْقَلَهُم حِمْلا .

وقَدْ بَلَغَ أَميرَ المؤمنين أَنَّه قد فَشَتْ لَكَ ولأَهل بَيتك هَيئَة فى لِباسك ومطعمك ومَرْكَبك لَيسَ لِلمُسلِمين مِثْلُهَا ، فإيَّاك ياعبْدَ الله أَنْ تَكُونَ بِمَنزلة ٱلْبَهِيمَة الَّتِى مَرَّت بِوَادٍ خِصْبٍ ، فَلَم يَكُن لَهَا همَّة إلا السِّمَن ، وإنَّمَا حَتْفُهَا فى السمن .

---

(١) كبل أيديهم وأرجلهم بالأغلال والقيود .
(٢) عداوة وشحناء .
(٣) فى صيغة أخرى : نخوة من انشيطان وهى الكبر والعظمة والقومية .
(٤) يعودوا .
(٥) اشتد فى عقوبتهم .
(٦) أى اجعل ثقتك فيهم لأنهم لايدعون بالقبلية .

واعلم أن للعامل مَرَدًّا إلى الله ، فإذا زاغَ العامِل زاغت رَعِيَّته ، وأنَّ أَشْقَىٰ النَّاس مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَعِيَّته والسَّلام »

***

كتاب عمر الى سعد بن أبى وقاص

عند غزو فارس

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص ومن معه من الأجناد : قال بعد حمد الله والثناء عليه :

أما بعد .. فإنى آمُرُكَ ومَنْ مَعَكَ مِنَ الأَجْنَاد بِتَقْوَىٰ الله على كل حال ، فإن تقوىٰ الله أفضل العدَّة على العدُوِّ ، وأقوىٰ المكيدة فى الحرب ، وآمُرُكَ ومن مَعَكَ أن تكُونُوا أشَد احتراساً من المعاصى مِنكُم من عَدوِّكُم ، فإن ذُنُوب الجيش أخوف عَلَيهم من عَدُوِّهم ، وإنَّمَا يُنصر المسلمون بِمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكُنْ لَنَا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عُدَّتَنَا كَعدَّتهم ، فإن استَوَينا فى المعصية كان لَهم الفضل عَلَينا فى القوة ، وإلا نُنْصُر عَلَيهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حَفَظَة من الله يعلمون ماتفعلون فاستحيوا منهم ، ولاتعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا : إنَّ عدونا شرٌّ مِنَّا ، فلن يُسَلَّط علينا ، فرب قوم سُلِّط عليهم شرٌّ منهم ، كما سُلِّط على بنى اسرائيل – لما عملوا بمساخط الله – كفَّارُ المجوس ، فجاسوا خلال الدِّيار ، وكان وعداً مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألُونَه النَّصر على عدوِّكُم ، أسأَل الله تعالى ذلك لنا ولكُم .

وتَرَفَّقْ بالمسْلِمين فى مَسِيرِهم ، ولا تُجَشِّمْهُم مَسِيراً يُتْعِبهُم ، ولا تُقَصِّر بهم عن مَنزل يرفُقُ بهم ، حتى يبلُغُوا عدوهم – والسَّفَرُ لم يُنْقِص

قوتهم – فإنهم سائرون إلى عدو مُقيم ، حامى الأَنفُس والكراع (١) ، وأقِم بِمَن مَعَكَ فى كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يُحْيُون فيها أنفُسهم ، ويُرمِّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونَحِّ منازلهم عن قُرَىٰ أهل الصلح والذِّمَّة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولايَرْزَأ(٢) أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابْتُلِيتُم بالوفاء بها ، كما ابْتُلُوا بالصَّبر عليها ، فما صبروا لكم فَتَوَلَّوْهم خيراً ، ولا تَسْتَنْصِرُوا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، فإذا وَطِئْتَ أرض العدُوِّ فأَذْكِ العُيُون (٣) بينَكَ وبَينَهُم ، ولا يَخْفَ عليك أمرهم . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأَرض من تطمئن إلى نُصْحِه وصدقه ، فإن ٱلْكَذُوب لاينفعك خَبَرُه ، وإنْ صَدَقَكَ فى بعضه ، وٱلْغَاشُّ عَيْنٌ عليك ، وليس عيناً لك ، وليكن منك عند دُنُوِّك من أَرض ٱلْعَدُوِّ أن تكثر الطلائع وتبُثَّ السَّرَايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا (٤) أمدادهم ومرافقهم وتتَّبع الطلائع عوراتهم ، وتنَقَّ (٥) للطلائع أهل الرأى والبأْس من أصحابك ، وتَخَيَّر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلاد ، ولاتخصَّ بها أحداً بِهَوَى فَتُضَيِّعَ من رأيك وأمرك أكثر مِمَّا حابيت به أهل خاصَّتِك ، ولاتبعثنَّ طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية ، فإذا عاينت العدو ، فاضمم إليك أقاصيَك وطلائعك وسراياك . واجمع إليك مكيدتك وقوّتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة مالم يستكرهك قتال ،

---

(١) الخيل .
(٢) يصيب .
(٣) أرسل المخبرين .
(٤) قطع من الجيش .
(٥) تلقاه : اختاره .

حتى تُبْصِرَ عورة عدوك ومقاتله ، وتعرفَ الأَرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أَذْكِ أحراسك على عسكرك وتَيَقَّظْ من البَيَاتِ (١) جهدك ، ولا تُؤتَى بأَسير ليس له عقد (٢) إلا ضربت عنقه لترهب به عدو الله وعدوك ، والله ولىُّ أمرك ومن معك . وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان .

***

من وصـــايا الحـــروب

كان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يقول عند عقد الألويه :

بسم الله وبالله وعلى عون الله . امضوا بتأييد الله والنصر ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله . ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تُمَثِّلوا عند القدرة . ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هِرماً ولا امرأة ولا وليداً . وَتَوَقَّوْا قتلهم إذا التقى الزَحفان ، وعند حُمَّة (٣) النَّهَضَات . وفى شَنِّ الغارات ، ولا تَغُلُّوا عند الغنائم ، ونَزِّهوا الجهاد عن عَرَض الدنيا ، وأبشروا بالرباح فى البيع الذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم .

***

كتاب عثمان الى أهل الموسم(٤)

أمر عثمان بن عفان رضى الله عنه عبدالله بن عباس أن يحج بالناس فى السنة التى قتل فيها (سنة ٣٥ هـ) وكتب معه إلى أهل الموسم بكتاب يسألهم أن يأخذوا له بالحق ممن حصره وهو :

---

(١) البيات : غارات العدو الليلية .
(٢) عهد .
(٣) حمة : – شدة .
(٤) بتصرف من الأصل جمهرة رسائل العرب ج ١

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله عثمان أمير المؤمنين ، إلى المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإنى أذكركم بالله جل وعز الذى أنعم عليكم ، وعلمكم الإسلام ، وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ، وأراكم البيِّنَات ، وأوسع عليكم من الرِّزق ، ونصركم على العَدُوِّ ، وأسبغ عليكم نِعَمه ، فإن الله عز وجل يقول وقوله الحَق :

(وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها ، إنَّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (١). ثم ذكرهم بآيات من الذكر الحكيم ، منها :

(أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولى الأَمْرِ مِنْكُم ، فَإنْ تَنَازَعْتُم فى شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤمِنُونَ بِالله وَالْيَوم الآخِرِ ، ذٰلِكَ خَيْرٌ وأَحْسنُ تَأْوِيلا) (٢) .

وقال ، وقوله الحق :

(وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لايُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ)(٣). وقال أيضاً وقوله الحق : (إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِم ،

---

(١) إبراهيم : ٣٤ (٢) النساء : ٥٩

(٣) النور : ٥٥

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِه ،ومَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيهُ الله فَسَيُؤتِيه أَجْراً عَظِيماً) (١) .

أما بعد : فإن الله عزَّ وجلَّ رضى لكم السمع والطاعة والجماعة ، وحذَّركم من المعصية والفرقة والاختلاف ونبَّأكم بما قد فعله بالذين من قبلكم ، وتقدم إليكم فيه ، ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه ، فاقبلوا نصيحة الله جل وعز ، واحذروا عذابه ، فإنكم لن تجدوا أُمَّة هلكت إلا من بعد أن تختلف ، إلا أن يكون لها رأس يجمعها ، ومتىٰ ماتفعلون ذلك لاتقيموا الصلاة جميعاً ، وسُلِّطَ علَيكم عدوُّكم ، ويستَحِلَّ بعضكم حُرَمَ بعض ، ومَتَىٰ يُفعل ذلك لايَقُمْ لله سبحانه دين ، وتَكُونوا شِيَعاً ، وقد قال الله جل وعز لرسوله صلى الله عليه وسلم :

(إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُم فى شَيءٍ . إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إلى الله ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (٢) .

وإنِّى أُوصيكم بما أَوصاكم الله ، وأُحَذِّركم عذابه ، فإنَّ شُعَيباً صلى الله عليه وسلم قال لقومه :

(وَيَا قَوْمِ لا يجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبكُم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَو قَوْمَ هُودٍ أَو قَوْمَ صَالِحٍ ،وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُم بِبَعِيد . واستَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ ،إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُود) (٣) .

---

(١) الفتح : ١٠ (٢) الأنعام : : ١٥٩

(٣) هود : ٨٩ ، ٩٠

أما بعد : فإن أقواماً ممن كان يقول فى هذا الحديث أظهروا للناس أنَّما يدعون إلى كتاب الله عز وجل والحق ، ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها ، فلما عُرض عليهم الحق إذا الناس فى ذلك شتىٰ . منهم آخذ للحق ونازِعٌ (١) عنه حين يُعْطَاه ، ومنهم تارك للحق ونازل عنه فى الأَمر يُرِيد أَن يَبْتَزَّه (٢) بغير الحق ، طال عليهم عُمْرى ، وراث (٣) عليهم أَملهم الإمرة فاستعجلوا القدَر ، وقد كتبوا إليكم أنهم قد رَجَعوا بالذى أعطيتُهم ، ولا أعلم أنى تركتُ من الذى عاهدتهم شيئاً ، كانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود فقلت : أَقيموها على من علمتم تَعَدَّاها فى أَحَد ، أَقيموها على من ظلمكم من قريب أو بعيد ، قالوا : كتاب الله يُتْلى ، فقلت : فَلْيَتْلُهُ من تلاه غير غَال فيه بغير ماأنزل الله فى الكتاب ، وقالوا : — المحروم يرزق ، والمال يُوَفَّى ليُسْتَنَّ فِيه السُّنَّة الحسنة ، ولايعْتَدَىٰ فى الخُمْسِ ولا فى الصَّدَقة ، ويُؤَمَّر ذو القوة والأَمانة . وتُرَد مظالم الناس إلى أَهلها ، فَرَضِيتُ بذلك واصطبرت له . وجئتُ نِسْوَةَ النبى صلى الله عليه وسلم حتى كَلَّمْتهنَّ فقلت : ما تأْمُرْنَنِى ؟ فقُلْنَ : تُؤَمِّر عمرو بن العاص (٤) ، وعبد الله بن قيس (٥) وتَدَعُ معاوية ،

---

(١) نزع عن الأمر كضرب : كف وأبى .

(٢) يستلبه . (٣) أبطأ عليهم .

(٤) مات « عمر » وعلى مصر « عمرو بن العاص » فلما ولى « عثمان » أقره على عمله أربع سنين أو نحوها ثم عزله وولى مكانه عبدالله بن سعد بن أبى سرح — وهو أخو عثمان من الرضاع .

(٥) هو أبو موسى الأشعرى ، وكان عاملا على البصرة لما قتل عمر فأقره عثمان عليها وظل ست سنين ثم عزله عنها سنة ٢٩ هـ وولاها عبدالله بن عامر — وهو ابن خال عثمان — فسار أبو موسى من البصرة إلى الكوفة فلم يزل بها حتى أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص =

فإنما أَمَّرَه أمير قبلك ، فإنه مصلح لأرضه ، راض به جُنْده ، واردد عَمْراً فإن جُنده راضون به ، فكلَّ ذلك فَعَلْت ، وإنَّه اعْتُدِىَ عَلَىَّ بعد ذٰلك ، وعُدِىَ على الحَقِّ ، كتبتُ إليكم وأصحابى الذين زَعَموا فى الأمر اسْتَعجَلوا القَدَر ، ومَنَعوا منّى الصَّلاة (١) ، وحالوا بينى وبين المسجد ، وابتَزّوا ماقدروا عليه بالمدينة ، كتبت إليكم كتابى هذا وهم يُخَيِّرُونَنِى إحْدَىٰ ثلاث : إمَّا يُقِيدونَنى بكل رَجُلٍ أصبْتُه خطأً أو صواباً غير متروك منه شىءٌ ، وإما أعتزل الأمر فيؤمِّرون آخر غيرى ، وإما يُرْسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فَيَتَبَرَّءُونَ من الذى جعل الله سبحانه لى عليهم من السمع والطاعة ، فقلت لهم : أما إقادتى من نفسى ، فقد كان من قَبْلى خلفاءُ تُخْطِئُ وتصيب فلم يُسْتَقَدْ (٢) من أحد منهم ، وقد علمتُ إنما يريدون نفسى ، وأما أن أتبرَّأ من الإمارة فإن يَكْلُبُونى (٣) أحب إلى من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل وخلافته ، وأما قولهم يرسلون إلى الأجناد وأهل المدينة فَيَتَبَرَّءُون من طاعتى ، فلست عليهم بوكيل ، ولم أَكُنْ استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة ، ولكن أَتَوْها طائعين يبتغون مرضاة الله عز وجل وإصلاح ذات البين ، ومن يكن منكم إنما يبتغى الدنيا فليس بنائل منها إلا ما كتب الله عز وجل له ، ومن يكن إنما يريد وجه الله والدَّارَ الآخرةَ وصلاحَ الأُمة وابتغاء

= وطلبوا من عثمان أن يستعمل أبا موسى عليهم فاستعمله سنة ٣٤هـ فلم يزل على الكوفة حتى قتل عثمان فعزله « على » عنها .

(١) لم يمكنونى من الصلاة . (٢) استقاد : ذل وخضع .

(٣) كلبه : أى ضربه بالكلاب — وهو قطعة الحديد التى على خف رائض الخيل .

مرضاة الله عز وجل والسُّنَّة الحسنة التى اسْتَنَّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفتان من بعده رضى الله عنهما ؛ فإنما يَجْزِى بذلكم الله ، وليس بيدى جَزَاؤُكم ، ولو أعطيتكم الدنيا كلها ، لم يكن فى ذلك ثمن لدينكم ، ولم يُغْنِ عنكم شيئاً ، فاتقوا الله واحتسبوا ما عنده ، فمن يَرْضَ بالنَّكْثِ منكم فإنى لا أرضاه له ، ولا يرضى الله سبحانه أن تنكثوا عهده ، وأما الذى يخَيِّرُونَنى فإنما كله النَّزْع والتأمير ، فملكتُ نفسى ومن معى ، ونظرتُ حُكْمَ الله وتغيير النعمة من الله سبحانه ، وكَرِهْتُ سُنَّة السوء وشقاق الأُمة وسفك الدماء .

فإنى أَنشُدُكُم بالله والإسلام أن لاتأَخُذُوا إلا الحق وتُعطوه منى ، وترك البغى على أهله ، وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عز وجل ، فإنى أنشدكم الله سبحانه الذى جعل عليكم العهد والموازرة فى أمر الله ، فإن الله سبحانه قال وقوله الحق :

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ ،كَانَ مَسْئُولا) (١) .

فإن هذه معذرة إلى الله ولعلكم تَذَكَّرُون .

أما بعد : فإنى لا أُبرئُ نفسى ، إنَّ النفس لأَمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ، وإن عاقبتُ أقواماً فما أبتغى بذلك إلا الخير ، وإنى أتوب إلى الله – عز وجل – من كلِّ ماعملته وأستغفره ، إنه لايغفر الذنوب إلا هو ، إن رحمة ربى وَسِعت كل شىء ، إنه لايقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون ، وإنه يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

---

(١) الإسراء : ٣٤

وأنا أسأل الله عز وجل أن يغفر لي ولكم ، وأن يُؤلف قلوب هذه الأُمة على الخير ، ويُكَرِّه إليها الفسق ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون .

فقرأ ابن عباس هذا الكتاب على الناس قبل التروية (١) بمكة بيوم ، ثم قفل إلى المدينة وإذا عثمان قد قتل .

***

وصية على الى عثمان بن حنيف

بلغ علياً – رضى الله عنه – أن عامله على البصرة عثمان بن حنيف دعى إلى وليمة قوم من أهلها فمضى اليها فكتب إليه :

« أما بعد : يابن حُنَيف ، فقد بلغنى أن رجلا من فِتية (٢) أهل البصرة دعاك إلى مَأْدُبَةٍ فأَسرعت إليها ، تُسْتَطاب لك الأَلوان ، وتُنْقَل إليك الجِفان ، وما ظَنَنْتُ أنك تُجيب إلى طعام قوم عائلهم (٣) مَجْفُوّ ، وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ماتَقْضمُه مِنْ هذا المَقْضَم ، فما اشتبه عليك علمه فالْفِظْه ، وما أيقنت بطِيب وجوهه فَنَل منه .

ألا وإن لكل مَأْموم إماماً يُقْتَدَىٰ به وتستضئ بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفىٰ من دنياه بِطِمْرَيْه (٤) ومن طُعْمِه بِقُرْصَيْه ، ألا وإنكم لاتَقْدرون على ذلك ، ولكن أعينونى بِوَرَع واجتهاد ، وعِفَّة وسدَاد ، فو الله ما كَنَزْتُ مِن دنياكم تِبْراً ، ولا ادَّخرتُ مِن غنائمها وَفراً ، ولا

---

(١) يوم التروية : هو اليوم الثامن من ذى الحجة يتزود الحجاج فيه بالماء ، لأنه كان قليلا بمنى فكانوا يتزودون من الماء من بعيد .

(٢) يقال للشاب فتى وللسخى فتى .

(٣) فقيرهم – مجفو : أى متروك .

(٤) الطمر : – الثوب البالى .

أعددت لِبالى ثوبى طِمْرا ، ولا حُزْتُ من أرضها شبراً . ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مُصَفَّى هذا العسل .ولُباب هذا القمح ، ونسائج هذا القزِّ ، ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تَخيُّر الأَطعمة .ولعل بالحجاز وباليمامة من لاطمع له فى القرص ، ولاعهد له بالشبع ، أَو أَبيتَ مِبطاناً وحولى بُطُونٌ غَرْثَىٰ (١) ، وأكباد حَرَّىٰ (٢) ، أَو أَكون كما قال القائل :

وحسبك عاراً أن تَبِيت بِبِطْنَةٍ

وحولك أكباد تحن إلى القِدِّ (٣)

أَأَقنع من نفسى بأَن يقال : هذا أَمير المؤمنين ، ولا أُشاركهم فى مكاره الدهر ، أَو أَكون أُسوة (٤) لهم فى جُشُوبَة (٥) العَيش . فما خُلِقتُ ليشغلنى أكل الطيبات ، كالبهيمة المربوطة ، هَمُّهَا علفها . أَو المرسلة شُغْلُها تَقَمُّمُها (٦) ، تكترش (٧) من أعلافها ، وتلهو عمَّا يُرَاد بها ، أَو أُتْرَكَ سُدىً وأُهمل عابثاً ، أَو أَجُرَّ حبل الضلالة ، أَو أَعْتَسف (٨) طريق المتاهة .

طُوبَىٰ لِنفس أَدَّت إلى ربِّها فَرْضَهَا ، وعركت بجنبها بُؤسَهَا (٩) وهجرت فى الليل غُمْضَها ، حتىٰ إذا غَلَبَ الكَرَىٰ عليها ، افترشت

---

(١) جياع .
(٢) حارة من الظمأ .
(٣) القطعة من الخبز أو اللحم .
(٤) قدوة .
(٥) خشونة .
(٦) تتبعها القمامات والتقاطها .
(٧) تملأ كرشها .
(٨) أركب الطريق على غير هدى .
(٩) صبرت عليه .

أرضها ، وتوسَّدت كفَّهَا ، فى معشر أَسْهَرَ عُيُونَهم خَوفُ مَعَادِهم ، وتجافت عن مضاجعهم جُنُوبهم ، وهَمْهَمَتْ (١) بِذِكر ربهم شِفَاهُهُمْ ، وتَقَشَّعَتْ بِطُول استغفارهم ذُنُوبهم ، (أُولٰئِكَ حِزْبُ الله ، أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفْلِحُونَ) (٢) .

فاتَّقِ الله يابن حنيف . . . ولتكفك أَقراصك ، ليكون من النَّار خلاصك » .

***

كتاب على للأشتر النخعى

ومن كتاب لعلى بن أبى طالب – كرم الله وجهه – كتبه للأشتر النخعى ، لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر محمد بن أبى بكر – وهو أطول عهوده وأجمع كتبه للمحاسن .

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما أمر به عبدالله علىٌّ أمير المؤمنين . مالك بن الحارث الأَشتر فى عهده إليه ، حين ولاَّهُ مصر : جباية خراجها ، وجهادَ عدوِّها ، واستصلاحَ أَهْلِها ، وعمارةَ بلادها .

« أَمره بتقوىٰ الله ، وإِيثارِ طاعته ، واتباعِ ما أَمر به فى كتابه : من فرائضه وسننه ، التى لايسعد أَحد إلا باتباعها ، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها ، وأَن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فإنه – جَلَّ اسمه – قد تكفَّل بنَصْرِ مَنْ نَصَرَه ، وإِعْزَازِ من أَعزه .

---

(١) الهمهمة : الكلام الخفى وترديد الصوت .

(٢) المجادلة : ٢٢

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ، ويزعها عند الجمحات ، فإن النفس أمَّارة بالسوءِ ، إلا مارحم الله .

* ثم اعلم – يا مالك – أنى قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دولٌ قبلك ، من عدْلٍ وجَوْرٍ ، وأن الناس ينظرون من أُمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أُمور الولاة قبلك، ويقولون فيكَ ما كنتَ تقولُ فيهم ، وإنما يستدلُّ على الصالحين بما يجرى الله لهم على أَلْسُنِ عباده ، فليكن أَحبُّ الذخائرِ إليك ذخيرةَ العملِ الصالحِ ، فاملك هَوَاك وشح بنفسك عما لا يحلّ لك ، فإن الشُحَّ بالنفس الإنصافُ منها فيما أَحببتْ أَو كَرِهَت . واشعر قلبَك الرحمةَ للرعية ، والمحبةَ لهم ، واللُطْفَ بهم ، ولا تَكُونَنَّ عليهم سَبعاً ضَارِياً تَغْتَنم أَكْلَهُم ، فإنهم صنفان : إما أَخٌ لك فى الدين ، أَو نظيرٌ لك فى الخَلْق . يفرط منهم الزَّلَلُ . وتَعْرِض لهم العللُ ، ويُؤتَىٰ على أَيديهم فى العَمْدِ والخَطَأَ ، فاعطِهِم من عفوكِ وصَفْحِك مثلَ الذى تحب أَن يعطيك الله من عَفْوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، ووالى الأَمر عليك فوقك ، والله فوق من وَلاَّك ، وقد استكفاك أَمرهم ، وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لايد لك بِنِقْمَتِهِ ، ولا غِنَى بك عن عَفْوِهِ ورَحْمَتِه ، ولاتندمنَّ على عَفْوٍ ، ولاتبجحن بعقوبة ، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة ، ولا تقولن إنِّى مُؤَمَّرٌ آمُرُ فأُطَاع ، فإن ذلك إدغالٌ فى القلب ، ومنهكةٌ للدين ، وتقربٌ من الغير .

* وإذا أَحْدَثَ لك ما أَنت فيه من سُلْطَانك أُبَّهَةً أَو مَخِيلَةً ، فانظر إلى عِظَم مُلْكِ الله فوقك ،وقُدْرَته منك على مالا تقدر عليه من نفسك ،

فإنَّ ذلك يطامن إليك من طماحك ، ويكف عنك من غربك ، ويفيءُ إليك بما عزب عنك من عقلك .

* إياك ومساماةَ الله فى عَظَمَته ؛ والتَّشَبُّهَ به فى جَبَروُته ، فإن الله يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ ، ويُهِينُ كُلَّ مُخْتالٍ .

* انْصِف اللهَ وانصف الناسَ من نَفْسِك ومن خاصَّةِ أَهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم ، ومَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كان اللهُ خَصْمَه دون عباده ، ومن خَاصَمَهُ اللهُ أَدحضَ حجته ، وكان لله حرباً حتى ينزع أَو يتوب ، وليس شئٌ أَدعىٰ إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم ، فإن الله سميعٌ دعوةَ المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد .

* وليكن أَحبُ الأُمورِ إليك أَوسطها فى الحق ، وأَعمها فى العدل ؛ وأَجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة . وليس أَحدٌ من الرعية أَثقلَ على الوالى مؤونة فى الرخاءِ ، وأَقل معونة له فى البلاءِ ، وأَكره للإنصاف ، واسأَل بالإلحاف ، وأَقل شكراً عند الإعطاءِ ، وأَبطأَ عذراً عند المنع ، وأَضعف صبراً عند ملمات الدهر من أَهل الخاصة . وإنما عمادُ الدين وجماعُ المسلمين ، والعدة للأَعداءِ العامةُ من الأُمة ، فليكن صَفْوُكَ لهم ، ومَيْلُك معهم .

* وليكن أَبعد رعيتك منك ، وأَشنأَهم (١) عندك أَطلبهم لمعائب الناس ؛ فإن فى الناس عيوباً . الوالى أَحقَ من سترها ، فلا تكشفن عما

---

(١) أبغضهم .

غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك . والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك ، أطلق عن الناس عقدة كل حقد ، واقطع عنك سبب كل وتر (١) ،وتغاب عن كل مالا يصلح لك ولا تعجلن إلى تصديق سَاعٍ ، فإن الساعى غَاشٌ ، وإن تشبه بالناصحين .

* ولاتُدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ، ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأُمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحِرْص غرائز شتىٰ ، يجمعها سوءُ الظن بالله .

* إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومن شَرِكَهُم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة ؛ فإنهم أعوان الآثمة ، وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم (٢) وأوزارهم (٣) ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ، ولا آثماً على إثمه ، أُولئك أخف عليك مؤونة ، وأحسن لك معونة ، وأحنىٰ عليك عطفاً وأقل لغيرك إلفاً ، فاتخذ أُولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمُرِّ الحق لك ، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه ، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع ، والصق بأهل الورع والصدق ،ثم رضهم على أن لايطروك ولايبجحوك بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو ، وتدنى من العزة .

* ولايكونن المحسن والمسيءُ عندك بمنزلة سواء ، فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة .

---

(١) الانتقام أو الظلم فيه .
(٢) الإصر : الذنب .
(٣) الوزر : الإثم .

وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه . واعلم أنه ليس شيءٌ بأدعىٰ إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم ، فليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلا ، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده ، وإن أحق من ساءَ ظنك به لمن ساءَ بلاؤك عنده .

ولا تنقض سنَّة صالحة عمل بها صدور هذه الأُمة ، واجتمعت بها الالفة ، وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثن سُنَّة تضر بشيءٍ من ماضى تلك السنن ، فيكون الأَجر لمن سنها ، والوزر بما نقضت منها .

وأكثر مدارسة العلماء ، ومنافثة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك .

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض : فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ، وكل قد سمى الله له سهمه ، ووضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ـ عهداً منه عندنا محفوظاً . فالجنود ، بإذن الله ، حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبل الأَمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لاقوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم . ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب ، لما يحكمون

من المعاقد ويجمعون من المنافع . ويؤتمنون عليه من خواص الأُمور وعوامها . ولاقوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات ، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأَيديهم ما لايبلغه رفق غيرهم ، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم ، وفى الله لكل سعة ، ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه ، وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله ، وتوطين نفسه على لزوم الحق ، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل ، فَوَلِّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ولإمامك ، وأنقاهم جيباً ، وأفضلهم حلماً ، ممن يبطئ عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاء ، وينبو على الأَقوياء ، وممن لايثيره العنف ، ولا يقعد به الضعف .

* ثم الصق بذوى المروءات والأَحساب وأَهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة . ثم أَهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة ، فإنهم جِمَاعٌ من الكرم ، وشُعَبٌ من العرف (١) . ثم يتفقَّد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن فى نفسك شئ قويتهم به ، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قلَّ ، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك ، وحسن الظن بك . ولا تدع تفقد لطيف أُمورهم اتكالاً على جسيمها ، فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه .

* وليكن آثر رؤُوس جندك عندك من واساهم فى معونته ، وأَفضل عليهم من جدته ، بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أَهليهم ، حتى يكون همهم هماً واحداً فى جهاد العدو ، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم

---

(١) العرف : الجود والمعروف .

عليك . وإن أفضل قرَّة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد ، وظهور مودة الرعية . وإنه لاتظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة الأُمور وقلة استثقال دولهم ، وترك استبطاء انقطاع مدتهم ، فافسح فى آمالهم ، وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم . فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع . وتحرض الناكل إن شاء الله .

* ثم اعرف لكل امرىءٍ منهم ما أبلى ولا تضيفن بلاء امرىءٍ إلى غيره ، ولا تقصرن به دون غاية بلائه . ولا يدعونَّك شرف امرىءٍ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً (١) ولاضعة امرىءٍ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما .

* واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأُمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : (يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُم ، فَإِنْ تَنَازَعْتُم فى شَىءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ)(٢). فالرد إلى الله : الأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .

* ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لاتضيق به الأُمور ، ولاتمحكه الخصوم ، ولا يتمادىٰ فى الزلة ، ولايحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه . ولاتشرف نفسه على طمع ، ولايكتفى بأدنىٰ فهم دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأُمور ، واصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لايزدهيه إطراءُ ، ولايستميله إغراءُ ، ، وأُولئك

---

(١) دقيقاً .

(٢) النساء : ٥٩

قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس ، واعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر فى ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً فى أيدى الأشرار ، يعمل فيه بالهوى ، وتطلب به الدنيا .

* ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ، ولا تولِّهم محاباة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة . وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء ، من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام المتقدمة ، فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح اعراضاً ، وأقل من المطامع إشراقاً ، وأغلب فى عواقب الأمور نظراً . ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم . وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم . وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية وتحفظ من الأعوان . فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبارُ عيونك ، اكتفيت بذلك شاهداً ، فبسطت عليه العقوبة فى بدنه ، وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ، ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة .

* وتفقد أمر الخراج (١) بما يصلح أهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولاصلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لايدرك إلا بالعمارة . ومن طلب

---

(١) الخراج : نصيب بيت المال مما يخرج من الأرض .

الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا . فإن شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة ، أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش ، خففت عنهم ، بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك ؛ مع استجلابك حسن ثنائهم ، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم ، بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم فى رفقك بهم . فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به ، فإن العمران محتمل ما حملته ، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع ،وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .

* ثم انظر فى حال كتّابك فَوَلِّ على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لاتبطره الكرامة فيجترىء بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملإ ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصواب عنك ، فيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل ، ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء . ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، فاعمد لأحسنهم كان فى العامة أثراً ، وأعرفهم بالأمانة وجهاً ،

فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره ، واجعل لرأس كل أمر من أُمورك رأساً منهم لايقهره كبيرها ، ولا يشتت عليه كثيرها . ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته .

* ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيراً : المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه ، فإنهم مواد المنافع ، وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وحيث لايلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها ، فإنهم سلم لاتخاف بائقته وصلح لاتخشى غائلته ، وتفقد أُمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك.

* واعلم – مع ذلك –أن فى كثير منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً فى البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة ، وغيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – منع منه ، وليكن البيع بيعاً سمحاً : بموازين عدل ، وأسعار لاتجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به ، وعاقبه فى غير إسراف .

* ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى ، فإن فى هذه الطبقة قانعاً ومعترّاً ، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافى الإسلام فى كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى ، وكل قد استرعيت حقه . فلا يشغلنك عنهم بطر ، فإنك لاتعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم ، فلا تشخص همك عنهم . ولاتُصعِّر خدك لهم ، وتفقد أُمور من لايصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحقره الرجال . ففرِّغ لأُولئك ثقتك من أهل الخشية

والتواضع ، فليرفع إليك أُمورهم ، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه ... فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم ، وكل فاعذر إلى الله فى تأدية حقه إليه . وتعهد أهل اليُتْم وذوى الرقة فى السن ممن لاحيلة له ، ولا ينصب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيل – والحق كله ثقيل – وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ، ووثقوا بصدق موعود الله لهم .

* واجعل لذوى الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع ، فإنى سمعت رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يقول فى غير مَوْطن : « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّة لايُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ القَوِىِّ غَيْرَ مُتَتَعْتَع » . ثم احتمل الخرق منهم والعىَّ ، ونحِّ عنهم الضيق والأَنف ، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته . ويوجب لك ثواب طاعته . وأعط ماأعطَيت هنيئاً ، وامنع فى إجمال وإعذار .

* ثم أمورٌ من أمورك لابد لك من مباشرتها : منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كُتَّابُك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تحرج به صدور عوانك .وامْضِ لكل يوم عمله ، فإن لكل يوم مافيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت ، وأَجْزَلَ تلك الأَقسام ، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية .

* وليكن فى خاصة ما تخلص به لله دينكَ : إقامة فرائضه التى هى له خاصة ، فاعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ، ووفِّ ما تقربت به إلى

الله من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص ، بالغاً من بدنك ما بلغ . وإذا قمت فى صلاتك للناس ، فلا تكونن منفِّراً ولامضيِّعاً ، فإن فى الناس من به العلة وله الحاجة . وقد سأَلتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حين وجهنى إلى اليمن كيف أُصلى بهم ؟ فقال : « صلِّ بِهِمْ كَصَلاةِ أَضْعَفِهم ، وكُنْ بالمؤْمِنِينَ رَحِيْماً » .

أما بعد ، فلا يَطولن احتجابك عن رعيتك ، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأُمور ؛ والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويُشاب الحق بالباطل . وإنَّما الوالى بشر لايعرف ما توارى عنه الناس به من الأُمور ، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخت نفسك بالبذل فى الحق ، ففيم احتجابك من واجب حقٍّ تعطيه ، أو فِعْل كريم تسديه ، أو مبتلى بالمنع ، فما أسرع كف الناس عن مسأَلتك إذا أيسوا من بَذْلِك مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك ، من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف فى معاملة .

* ثم إن للوالى خاصة وبطانة ، فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف فى معاملة ، فاحسم مادة أُولئك بقطع أسباب تلك الأَحوال . ولاتقطعن لأَحد من حاشيتك وخاصَّتك قطيعة ، ولايطمعُن منك فى اعتقاد عقدة ، تضر بمن يليها من الناس ، فى شرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون مهنأً ذلك لهم دونك . وعَيْبُهُ عليك فى الدنيا والآخرة .

* والزِم الحق من لزمه من القريب والبعيد . وكن فى ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصَّتك حيث وقع . وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فإن مغبة ذلك محمودة .

* وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر (١) لهم بعذرك ، واعدل عنك ظنونهم باصحارك ، فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك . وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق .

* ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضاً ، فإن فى الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ،فإن العدو ربما قارب ليتغفل ، فخذ بالحزم ، واتهم فى ذلك حسن الظن . وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة . فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت . فإنه ليس من فرائض الله شيءٌ الناس أشد عليه اجتماعاً ، مع تفرُّق أهوائهم ،وتشتُّت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود . وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبِلُوا من عواقب الغدر فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسَنَّ بعهدك ولاتختلن عدُوَّك . فإنه لايجترىء على الله إلا جاهل شقى . وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته ، وحَرَماً يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره . فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل . ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ،ولا يَدْعُوَنَّكَ ضيق أمر ، لزمك فيه عهد الله ، إلى طلب انفساخه بغير الحق . فإن صبرك على

---

(١) أظهره .

ضيق أمر ترجو انفراجه ، وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته . وأن تحيط بك من الله فيه طلبه ، فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك .

* إياك والدماء وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شيء أدنى لنقمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة ، من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد ، فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة . فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه . بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد ، لأن فيه قود البدن . وإن ابتُليت بخطإٍ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة ، فإن فى الوكزة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدى إلى أولياء المقتول حَقَّهم

* وإياك والإعجاب بنفسك ، والثقة بما يعجبك منها ، وحب الإطراء ، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

* وإياك والمن على رعيتك بإحسانك ، أو التَّزَيُّدَ فيما كان من فعلك ، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك ، فإن المن يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس . قال الله تعالى : (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ) (١) .

* وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها ، أو التسقط فيها عند إمكانها أو اللجاجة فيها إذا تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه ، وأوقع كل أمر موقعه .

---

(١) الصف : ٣

• وإياك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة . والتغابى عما تعنى به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك . وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأُمور ، ويُنْتَصَفُ منك المظلوم . امْلكْ حميَّة أنفك ، وسورة حدك ، وسطوة يدك ، وغرب لسانك . واحترس من كل ذلك بكف البادرة ، وتأخير السطوة ، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تُحْكِمَ ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك (١) .

• والواجب عليك أن تتذكر مامضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنَّة فاضلة ، أو أثر عن نبينا – صلى الله عليه وآله وسلم – أو فريضة فى كتاب الله ، فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدتُ إليك فى عهدى هـذا ، واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك ، لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها . وأنا أسأل الله بسعة رحمته ، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه ، مع حسن الثناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد ، وتمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة ، إنا إليه راجعون . والسلام على رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – تسليماً كثيرا ، والسلام .

***

وصية على لابنه الحسن

ومن وصية لعلى بن أبى طالب لابنه الحسن رضى الله عنهما – كتبها إليه بحاضرين (٢) منصرفاً من صفين ، يصف نفسه وأولاده فى معرض الوعظ والتنفير من الدنيا .

---

(١) يرى كثير من المؤرخين أن أكثر ما نسب إلى على بن أبى طالب لم تثبت نسبته إليه بل هو من كلام ابن أبى الحديد وغيره. (٢)حاضرين : اسم بلدة فى نواحى صفين .

مِنَ الوَالد الفَان ، المُقرِّ للزَّمَان (١) ، المُدْبر العُمْر ، المُسْتَسْلم للدَّهْر ، الذَّامِّ للدُّنْيَا ، السَّاكن مَسَاكنَ المَوْتَى ، والظَّاعن عَنْهَا غَداً ، إلى المَوْلُود المُؤَمِّل مَا لا يُدْرَكُ (٢) . السَّالك سَبيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ، غَرَض الأَسْقَام وَرَهِيْنَةِ الأَيَّام ، وَرَمِيَّةِ المَصَائِبِ ، وعَبْدِ الدُّنْيَا ، وَتَاجِرِ الغُرُورِ وَغَرِيم المَنَايا ، وأَسير المَوتِ ، وحَلِيفِ الهُمُوم ، وقَرِينِ الأَحْزَانِ ، وَنُصْبِ الآفَاتِ ، وصَرِيع الشَّهَوَاتِ ، وخَلِيفَة الأَمْوَات .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ فيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّى وجُمُوح الدَّهْرِ (٣) عَلَيَّ ، وإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ ، مَا يَزَعُنِى عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ ، والاهْتِمَام بِمَا وَرَائِى ، غَيْرَ أَنِى حَيْثُ تَفَرَّدَ بِى دُونَ هُمُوم النَّاسِ هَمُّ نَفْسِى ، فَصَدَفَنِى رَأْيِى ، وصَرَفَنِى عَنْ هَوَايَ ، وصَرَّحَ لِى مَحْضُ أَمْرِى ، فَأَفْضَى بِى إِلى جِدٍّ لا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ ، وصِدْقٍ لا يَشُوبُهُ كَذِبٌ ، وَوَجَدْتُكَ بَعْضِى ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّى ، حتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِى ، وكَأَنَّ الموتَ لو أَتَاكَ أَتانِى ، فَعَنَانِى مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِى مِنْ أَمْرِ نَفْسِى ، فَكَتَبْتُ إِلَيكَ مُسْتَظْهِراً بِهِ (٤) إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَو فَنِيتُ .

* فإِنِى أُوصيكَ بِتَقْوَى اللهِ – أَى بُنَيَّ – ولُزُوم أَمْرِهِ ، وَعِمَارةِ قَلبكَ بِذِكْرِهِ ، والاعْتِصَام بِحَبله . وأَىُّ سَبَبٍ بينك وبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ

---

(١) المعترف له بالشدة .

(٢) يؤمل البقاء وهو مما لا يدركه أحد .

(٣) استعصاء الدهر وتغلبه .

(٤) مستعيناً بما أكتب إليك على ميل قلبك وهوى نفسك .

* أَحْى قَلْبَكَ بالمَوْعِظَة ، وأَمِتْهُ بالزَّهَادَة ، وقَوِّهِ بِالْيَقِين ، ونَوِّرْهُ بِالْحِكْمَة ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ المَوْت ، وقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ (١) . وبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ، وحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ ، وفُحْشَ تَقَلُّب اللَّيَالِى والأَيَّام ، واعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الماضِينَ ، وذَكِّرْهُ بِمَا أَصَاب مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ ، وَسِرْ فى دِيَارِهِم وآثَارِهِمْ فانْظُرْ فِيمَا فعَلُوا ؟ وعَمَّا انْتَقَلُوا ؟ وأَيْنَ حَلُّوا ونَزَلُوا ؟ فَإِنَّكَ تَجِدُهُم قَد انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّة ، وحَلُّوا دِيَارَ الغُرْبَة ، وكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاك ، ولاتَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ، ودَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لاتَعْرِفُ ، والْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّف ، وامسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذا خِفْتَ ضَلالَتَهُ ، فَإِنَّ الكَفَّ عِنْدَ حيرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَال ، وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِه ، وانْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ ، وبَايِن مَنْ فَعَلَهُ بِجَهْدِكَ (٢) وجَاهِدْ فى الله حَقَّ جِهَادِه ، و تَأْخُذْكَ فى الله لَوْمَةُ لائِم ، وَخُضِ الغَمَرَاتِ (٣) لِلْحَقِّ حَيْثُ كان ، وتَفَقَّه فى الدين ، وعَوِّد نفسك التَّصَبُّرَ على المَكْرُوه ، ونِعْمَ الخُلُقُ التَّصَبُّر ، وَأَلْجِىء نَفْسك فى الأُمور كلها إلى إلهك ، فَإِنَّك تُلجِئها إلى كهف حَرِيز (٤) ، ومَانع عَزِيزٍ ، وأَخْلِص فى المسأَلة لِرَبِّك ، فإن بِيَدِه العَطَاءَ والحرمان ، وأَكْثِرِ الاستِخَارَة (٥) وتَفَهَّم وصِيَّتِى ، ولاتذهبنَّ عنها صَفحاً (٦) فإنَّ خيرَ القول مانفع ، واعلم أَنَّهُ لاخَيْرَ فى علْم لايَنْفَع ولايُنْتَفَعُ بِعِلْم لايَحِقُّ تَعَلُّمُهُ .

---

(١) اطلب منه الإقرار بالفناء .
(٢) باين : أى باعد وجانب الذى يفعل المنكر .
(٣) الغمرات : الشدائد .
(٤) الكهف : الملجأ . والحريز : الحافظ .
(٥) الاستخارة : إجالة الرأى فى الأمر قبل فعله لاختيار أفضل وجوهه .
(٦) تذهب عنها صفحاً : أى لاتعرض عنها .

• أى بُنَىَّ .. إنى لما رأيتنى قد بلغت سِنًّا ، ورأيتنى أزداد وَهْناً ، بادرتُ بوصيتى إليك ، وأوردت خصالا منها قبل أن يعجل بى أجلى دون أن أُفضى إليك بما فى نَفْسى . وأن أنقُصَ فى رَأْيِى كما نَقَصْتُ فى جسمى ، أو يَسْبِقنى إلَيْكَ بعض غَلَبَاتِ ٱلْهَوَىٰ وفِتَن الدُّنيا ، فتكون كالصَّعْبِ النَّفُورِ (١) وإنَّمَا قلب الحدث كالأرض الخالية ماأُلْقِىَ فيها من شىءٍ قَبِلَتْهُ ، فبادرتُك بالأدب قبل أن يَقْسو قلبك ، ويشتغل لبُّك لتستقبل بِجدِّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته فتكون قد كُفِيتَ مَؤُونة الطلب . وعُوفِيتَ من علاج التجربة ، فأتاك مِن ذلك ما قد كنا نأتيه . واستبان لك ما رُبَّمَا أُظْلِمَ عَلَينا منه .

• أى بُنَىّ ... إنِّى وإن لم أَكُنْ عُمِّرتُ عُمر من كان قبلى ، فقد نظرت فى أعمالهم ، وفكَّرتُ فى أخبارهم ، وسرت فى آثارهم حتى عدت كأحدهم ، بل كأنى بما انتهى إلى من أمورهم قد عُمِّرت مع أولهم إلى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت لك من كل أمر نَخِيلَهُ (٢) وتوخيت لك جميله ، وصرفت عنك مجهوله ورأيت حيث عنانى من أمرك ما يعنى الوالد الشفيق ، وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ومقتبل الدهر ، ذو نِيَّة سليمة ونفس صافية ، وأن أَبْتَدِئَكَ بتعليم كتاب الله وتأويله ، وشرائع الإسلام وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، لا أُجاوز ذلك بك إلى غيره ، ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل الذى التبس عليهم ، فكان إحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك به الهَلَكَةَ

---

(١) الصعب : الفرس غير المذلل ، والنفور : ضد الأنس .

(٢) النخيل : المختار المصفى .

ورجوت أن يوفقك الله فيه لرشدك ، وأن يهديك لقصدك . فعهدت إليك وصيتى هذه .

* واعلم يابنى ، أن أحب ما أنت آخذ به إلى من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك ، والصالحون من أهل بيتك ، فإنهم لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر ، وفكروا كما أنت مفكر ، ثم ردَّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عما لم يكلَّفوا ، فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا ، فليكن طلبك ذلك بتَفَهُّم وتَعَلُّم ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَات وعُلُوِّ الخصومات . وابدأ قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلٰهك ، والرغبة إليه فى توفيقك . وترك كل شائبة أَوْلَجَتْكَ (١) فى شُبُهَة ، أو أَسْلَمَتْكَ إلى ضلالة ، فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخَشِع ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان همُّك فى ذلك همّاً واحداً . فانظر فيما فسرت لك ، وإن لم يجتمع لك ما تحب من نفسك . وفراغ نظرك وفكرك ، فاعلم أنك إنما تخبط العشواء (٢) وتتورط الظلماء . وليس طالب الدين من خبط أو خلط ، والإمساك عن ذلك أمثل .

* فَتَفَهَّم يابُنَىَّ وَصِيَّتِى . واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة ، وأن الخالق هو المميت ، وأن المُفْنِى هو المعيد ، وأن المبتلى هو المعافِى ، وأن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ماجعلها الله عليه من النعماء والابتلاء والجزاء فى المعاد أو ماشاء مما لا نعلم ، فإن أُشْكِل عليك شىءٌ من ذلك فاحمله على جهالتك به ، فإنك أول ماخلقت جاهلا ثم علمت ، وما

---

(١) أولجتك : أدخلتك .

(٢) العشواء : الضعيفة البصر .

أكثر ما تجهل من الأمر . ويتحير فيه رأيك . ويضل فيه بصرك . ثم تبصره بعد ذلك ، فاعتصم بالذى خلقك ورزقك وسوَّاك ، وليكن له تعبدك ، وإليه رغبتك . ومنه شفقتك (١) .

* واعلم يابنى أن أحداً لم ينبىء عن الله كما أنبأ عنه الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – فارض به رائداً . وإلى النجاة قائداً . فإنى لم آلك نصيحة (٢) وإنك لن تبلغ فى النظر لنفسك – وإن اجتهدت – مبلغ نظرى لك .

* واعلم يابنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله . ولرأيت آثار ملكه وسلطانه . ولعرفت أفعاله وصفاته . ولكنه إله واحد كما وصف نفسه . لايضاده فى ملكه أحد . ولايزول أبداً ، ولم يزل أول قبل الأشياء بلا أولية (٣) . وآخر بعد الأشياء بلا نهاية .

* يابنى... اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك . واكره له ما تكره لها . ولا تظلم كما لاتحب أن تُظلم وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك . واستقبح من نفسك ماتستقبح من غيرك . وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك . ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم ، ولاتقل مالا تحب أن يُقال لك .

* واعلم أن الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب ،فاسع فى كدحك ولا تكن خازناً لغيرك (٤) . وإذا أنت هُديت لقصدك ، فكن أخشع ما تكون لربك .

---

(١) شفقتك : خوفك . (٢) لم آلك نصيحة : أى لم أقصر فى نصيحتك .

(٣) فهو أول بالنسبة إلى الأشياء لكونه قبلها . إلا أنه لا أولية ، أى لا ابتداء له .

(٤) أى لاتخزن المال ليأخذه الوارثون بعدك . بل أنفق فيما يرضى الله .

« واعلم يابنى، أن الرزق رزقان : رزق تطلبه ،ورزق يطلبك ، فإن أنت لم تأته أتاك ، ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك . وإن جزعت على ماتفلّت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل إليك . استدل على ما لم يكن بما قد كان ، فإن الأُمور أشباه ، ولاتكونن ممن لاتنفعه العِظَة إلا إذا بالغت فى إيلامه . فإن العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لاتتعظ إلا بالضرب ، اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين ، من ترك القصد جار . والصاحب مناسب ، والصديق من صدق غيبه.

« ولا تملِّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها . فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة . ولا تعد بكرامتها نفسها ، ولاتطمعها فى أن تشفع بغيرها . وإياك والتغاير فى غير موضع غيرة . فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم ، والبريئة إلى الريب واجعل لكل إنسان من خدمك عملا تأخذه به ، فإنه أحرى أن لا يتواكلوا فى خدمتك ، وأكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذى تطير به ، وأصلك الذى إليه تصير ، ويدك التى بها تصول .

دعـــاء :

استودع الله دينك ودنياك ... واسأله خير القضاء لك فى العاجلة والآجلة ، والدنيا والآخرة ، والسلام .

***

وصية على لكميل بن زياد

قال كميل بن زياد : أخذ بيدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب – عليه السلام – فأخرجنى إلى « الجبان » وتنفس الصعداء ، ثم قال :

ياكميل بن زياد : إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عنى ما أقول لك :

الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق .

ياكميل .. العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، وصنيع المال يزول بزواله .

ياكميل بن زياد .. معرفة العلم دين يُدَان به ، به يكسب الإنسان الطاعة فى حياته ، وجميل الأُحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

ياكميل ، هلك خُزَّان الأموال ، وهم أحياءُ والعلماءُ باقون مابقى الدهر : أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ، ها إن ههنا لعلماً جماً (وأشار بيده إلى صدره) لو أصبت له حمله ؟ بلى أصبت لقنا غير مأمون عليه ، مستعملا آلة الدين للدنيا ، ومستظهراً بنعم الله على عباده ، وبحججه على أوليائه ، أو منقاداً لحملة الحق ، لابصيرة له فى أحنائه ، ينقدح الشك فى قلبه لأول عارض من شبهة ، ألا لا ذا ولا ذاك ؟ أو مَنْهُوماً باللذة ، سلس القياد للشهوة ، أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين فى شيء ، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة !! كذلك يموت العلم بموت حامليه .

***